

أرسطو يقول "لا" للعولمة

د. يوسف حسين¹

يبدو أن التاريخ يعيد نفسه بالفعل، حتى ولو زعم الكثير منا أنه ليس كذلك، كما يبدو أن الإنسانية إلى زماننا هذا لا تستفيد ولم تستفد من التجارب الخاطئة والمآسي السابقة التي هلكت بسببها أمم وشعوب وقبائل وبادت حضارات بعد أن سادت. وفيما يلي سنحاول الاستفادة من فكر قديم قيم نسقطه ونترله على حالة عالمنا اليوم لنكتشف كم هي الحال اليوم شبيهة بحال البارحة (التي تقاس هنا بالقرون). إنه فكر الفيلسوف اليوناني الكبير "أرسطو" الذي نجده يعنون الفصل التاسع من الباب الرابع لكتابه القيم "السياسيات" (السياسة الفضلى لأغلب الدول) ليقرر أن: "السياسة هي حياة الدولة. ولا مشاحة أن في كل دولة ثلاث فئات: فئة الموسرين المسرفين في الغنى، وفئة الفقراء المدقعين، والفئة الثالثة فئة معتدلي الحال، المتوسطة بين الفئتين الآخرين".²

ويبين أرسطو أن "أفراد الفريق الأول (فئة الموسرين) يغدون من أهل القحة المتجاسرين على كبائر الشرور، وأفراد الفريق الثاني يضحون من أهل السوء المقدمين كل الإقدام على صغائر الشرور".³

1. أستاذ محاضر في الفكر الإسلامي المعاصر، كلية العلوم الإسلامية - رئيس قسم العقائد والأديان - جامعة الجزائر.

2. أرسطو: "السياسيات"، نقله من الأصل اليوناني إلى العربية الأب أوغسطينس بربرة البوليسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونسكو)، بيروت لبنان 1957، ص 212، 213.

3. نفس المرجع ص 213.

ويعصف مآل الدولة التي تتكون من هاتين الطبقتين فحسب فيقول :
"وهكذا تسمي الدولة دولة أسياد وأرقاء، وليس دولة أحرار. بعض
أهلها يحسد، والبعض الآخر يتجبر".¹

ويخلص أرسطو - بعد التمثيل والتحليل - إلى القول : "فقد اتضح
إذن أن خير مجتمع مدني هو الذي يعتمد على متوسطي الحال. وأن الدول
التي يتاح لها أن تحسن السياسة، هي التي تكثر فيها الطبقة الوسطى،
وتقوى فيها خصوصا تلك الطبقة على الطبقتين الآخرين".²

ويرى بأن ظهور الفئة الوسطى على الفئتين الآخرين يؤدي إلى
الاستقرار السياسي وتجنب الثورات والانقلابات السياسية "إذ حيث تكثر
الطبقة الوسطى يقل جدا وقوع الثورات والاضطرابات في السياسة".³
أما الأمر الذي يقوض أركان الدولة ويؤدي إلى حدوث
الاضطرابات والقلق السياسية في نظر أرسطو فهو "عندما يتزايد
عدد المعسرين، ولا يتزايد عدد الطبقة الوسطى، تكثر الآثام في الدولة
وتسير بها بسرعة إلى الهلاك والبوار".⁴

وأما الفئة الموسرة فتؤدي في رأيه إلى : "وإذا ما سعى هؤلاء (الموسرون)
على قلة عددهم إلى إنماء ثرواتهم (فإنهم) يبلغون مبلغا عظيما من سعة
الجاه وكثرة الموالين، ويداني سلطانهم إذ ذاك الحكم الفردي⁵، لأنه
"وإنما يسوء النظام في دولة طغى عليها الأوغاد".⁶

1. نفسه ص 213.

2. نفسه ص 124.

3. نفسه ص 215.

4. نفسه ص 215.

5. نفسه ص 200.

6. نفسه ص 204.

فإذا رحنا نطبق هذه الأفكار لأرسطو (الذي ولد سنة 384 وتوفي سنة 322 قبل ميلاد المسيح عليه السلام) على حالة العالم اليوم (عالم العولمة) فإننا سنجد أنها تنطبق عليه تمام المطابقة على الرغم من قدمها والقرون التي تفصل بيننا وبين عصر هذا الفيلسوف البعيد النظر.

يقول الأستاذ الدكتور عبد الحي يحي زلوم واصفا حالة العالم المعاصر في ظل العولمة في كتابه القيم الموسوم : "نذر العولمة .. هل بوسع العالم أن يقول "لا" للرأسمالية المعلوماتية" : " ولقد نتج عن العولمة ازدياد الهوة بين الدول الفقيرة والغنية، وكذلك ازدياد الهوة بين النخبة والأكثرية في البلد الواحد. إن أجور ورواتب أغلبية الناس في الوقت الحاضر، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر الدول ازدهارا في العالم هي في أحسن الأحوال راکدة لا تشهد نمواً ، بينما تحقق القلة القليلة ثروات طائلة جراء النمو الاقتصادي وكأن ذلك النمو كله قد جبر لحسابها حيث يمتلك، على سبيل المثال، واحد بالمائة من الأمريكيين ما نسبته 48 % من الثروة الأمريكية بأكملها بينما يمتلك 80 % من الأمريكيين ما تقل نسبته عن 8 % . وتقدر ثروة بيل غيتس Bill Gates بحوالي 50 مليار دولار (لدى كتابة هذه المقدمة) وهي تعادل ما يمتلكه سكان مدينة أمريكية يزيد تعدادهم عن خمسمائة ألف نسمة. ومع ذلك فهناك في نيويورك والمدن الأمريكية الأخرى جيش من المشردين الذين لا مأوى لهم، يجوبون شوارع المدن ليل نهار هائمين على وجوههم".¹

1. عبد الحي يحي زلوم : "نذر العولمة - هل بوسع العالم أن يقول "لا" للرأسمالية المعلوماتية".

ولكي يعطينا صورة أوضح عن حالة العالم المعاصر فإن الدكتور عبد الحي يحي زلوم يضيف قائلاً : "وسيكون لمجموعات النخبة في المستعمرات المستقلة حديثاً مصالح مشتركة مع مجموعات "النخبة المتعولة" العالمية. وفي سعيهم وجريهم وراء مصالحهم المادية فإنهم سيعقدون الأحلاف ويمجرون المصاهرات في مواجهة أية مصالح قومية قد تتعارض مع "التعولم" إذ أن كافة المتعولمين في داخل البلد أو خارجه لا يدينون بأي ولاء أو إخلاص لأوطانهم فولاؤهم الأول والأخير هو لمصالحهم الشخصية الضيقة".¹

والآن وقد حصلنا على صورة واضحة المعالم لحالة عالمنا المعاصر فقد أصبح بوسعنا استشراف المستقبل، مستقبل الإنسانية في ظل سلبات العولمة، وذلك عن طريق علم جديد قلسم هو "علم المستقبليات". وأصبح بإمكاننا أن نقرر ما يلي :

يصبح الحديث -من الآن فصاعداً ومستقبلاً في ظل العولمة- عن الحوار بين الشمال والجنوب لا معنى له، وتصبح الاجتماعات بين دول الشمال ودول الجنوب لا جدوى منها، ذلك لأن العالم قد تغير بسرعة الضوء وبشكل جذري، وظهرت على الساحة العالمية ظروف ومتغيرات جديدة. كان الحوار بين الشمال والجنوب حواراً بين دول الشمال الغنية ودول الجنوب الفقيرة، وكانت هذه الأخيرة تتوسل للأولى أن ترفع عنها بعض غبن الديون التي عليها أو تلغيها. أما وقد أصبح العالم اليوم في ظل العولمة قرية "بل غابة" كونية، تتكون من

2. نفس المرجع ص 107. "لما نحن في عالمنا هذا - قديمنا هذا" : وماذا بعد ؟

طبقتين بارزتين وحيدتين لا ثالثة لهما، وهما : طبقة نسبة الواحد بالمائة الغنية The One Percent Class، وطبقة نسبة 99 بالمائة الفقيرة، فإن الحوار اليوم (وربما الصراع إن لم يعمل على تجنبه) سيتم اليوم بين هاتين الطبقتين : طبقة أقلية ثرية ثراء فاحشا "تمسك بمقاليد السيطرة على الأموال والإعلام وتسويق السياسيين والتشريعات . وتستحوذ على بناء النفوذ العالمي وتترفع على عرش النظام المالي الجديد القائم على المعلوماتية. ومن خلال السيطرة على هذه العناصر الثلاثة الأموال والإعلام والتسويق فإن هذه الطبقة تسيطر على العالم من خلال حفنة من الشركات عبر القطرية وتوجه اقتصادا تعتبر بعض مؤسساته وشركاته أكبر من اقتصاد أرسطو

يقول الأمريكي "دافيد كورتن David C.Korten" في كتابه "عندما تحكم الشركات العالم When Corporations Rule The World" إن نفس السياسات التي كانت الولايات المتحدة تتبناها وتدافع عنها وتروج لها في دول العالم قد خلقت عالما ثالثا ضمن حدودها نفسها فيملازمتزايدت الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة، ومن ثم الاعتماد على الديون الخارجية، فنيويورك مثلا باعتبارها مركزا عالميا رئيسا للنفوذ الاقتصادي، إلا أنها تبدو بكثير من مزايا دول العالم الثالث المعاصر، والجيش التي تجوب الشوارع في المدن من العاطلين والمشردين، مقارنة مع أنماط الحياة الباذخة المترفة للأغنياء والمشهورين وجنبا إلى جنب مع حكومات مشلولة لا حول لها ولا قوة، وعنف لا يميز بين واحد وآخر".¹

1. زلوم : "نذر العوالة"، مرجع سابق، ص 37.

إذن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أصبحت لا تشكل استثناء، إذ يصدق عليها ما يصدق على بقية دول العالم من حيث كونها جميعاً أصبحت تتكون من الطبقتين المتميزتين المذكورتين. ولعل الأمر الوحيد الذي يميز الولايات المتحدة الأمريكية عن غيرها من الدول هو أن طبقة نسبة الواحد بالمائة ربما تكون قد اختارتها كإدارة مركزية لربط مصالح الفئة الموسرة في العالم بأسره ببعضها البعض وتسيير شؤونها. ويبدو هذا الفهم معقولاً وصائباً خاصة إذا اعتمدنا على قول الدكتور عبد الحي يحي زلوم : "إن فئة أو طبقة الواحد بالمائة تسيطر على مقدرات القوى في كافة الأقطار مقابل 99 % الباقين من الشعب. إن ولاء الطبقة المذكورة ليس ولاء وطنياً ولكنه ولاء خارج حدود بلادهم . إن طبقة الواحد بالمائة في باكستان أو الصين لديها مصالح وثيقة مع نظيرتها في الولايات المتحدة أو ألمانيا أكثر من تلك الروابط مع بقية شعبهم".¹

وبإمكان أي واحد منا الآن إدراك كيف نظمت طبقة نسبتها واحد بالمائة نفسها وكيف تدبر وتدير شؤونها. فهناك طبقة مركزية حاكمة بالإمكان تسميتها "حكومة العولة" مقرها الرسمي الولايات المتحدة الأمريكية وبإمكانها تغييره في كل وقت وحسب ما تقتضيه الضرورة. وهناك طبقة فرعية جهوية عميلة ومتعولة (تأتمر بأوامر الطبقة المركزية وتنفذ تعليماتها) في كل بلد من بلدان العالم، أو قل -حسب المصطلحات الجديدة- في كل ولاية من ولايات القرية الكونية. فالجلي اليوم في كل بلدان العالم أن هناك تنسيقاً كاملاً وذكياً بين الطبقة المركزية وطبقاتها الفرعية قصد امتصاص خيرات طبقة نسبتها 99 بالمائة وتجويعها وتركيعةها.

1. نفس المرجع ص 42.

والآن لنعد - بغرض الربط والمقارنة بين اليوم والبارحة - إلى أرسطو والموقف المعارض والنقدي الذي وقفه إزاء المجتمع المدني الذي يتضمن بين جنبيه طبقتين فحسب : طبقة الأقلية الموسرة، وطبقة الفقراء المدقعين إن مجتمعاً خلا من الطبقة الوسطى ذات النسبة المئوية العالية هو مجتمع محكوم عليه بالفشل في بناء حضارة تخلده في التاريخ، وهو مجتمع لن يعرف الاستقرار أبداً، لأن سياسته سياسة ماكيافيلية خالية من الفضائل وعظائم الأمور. ويلاحظ من أفكار أرسطو التي اقتبسناها في البداية أنه أدرك بعمق أن الاقتصاد يلعب الدور الحاسم في حياة المجتمعات. فهو يتحدث عن الغنى والفقرة. عن الطبقة الغنية القليلة العدد التي تحكم الطبقة الفقيرة الكثيرة العدد وتتسلط عليها بوسيلة المال والاقتصاد. وما كان للطبقة المترفة أن تحكم وتسيطر وتستبد ببقية الشعب إلا لكونها تملك هذه الوسيلة الخطيرة.. المال أو الاقتصاد. ويحدثنا القرآن الكريم عن الأضرار التي تلحق الناس والفساد الذي يعم المجتمعات من جراء الترف ومن طرف المترفين فيقول الله عز وجل : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾¹.

وها هي الطبقة المترفة اليوم المسيطرة على خيرات العالم، عن طريق عولمة استحواذ عملائها على اقتصاديات العالم بأسره، تعيث في الأرض فساداً وتجر العالم بأسره إلى الفوضى والصراع والقلق والاضطرابات من أجل أمر واحد هو تحقيق أقصى ما يمكن من المنفعة الشخصية والرغبات الدنيئة والشهوات الحيوانية.

1. سورة الإسراء، الآية 16.

2. سورة الإسراء، الآية 16.

2. سورة الفجر الآيتان، 11، 12.